

حول الوعي النظري المأزوم
(قراءة ميتا- نقدية في الخطاب التنظيري العربي المعاصر)

الدكتورة : عبلة معاندي

جامعة عبد الرحمان ميرة - بجاية -

abl-maan@hotmail.fr

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2018-12-13	2018-11-27	2018-03-18

الملخص :

تهدف هذه الدراسة الميتا- نقدية إلى إثارة النقاش حول الوضعية الإشكالية التي يعاني منها الخطاب التنظيري العربي المعاصر، في ظل سياق ابستمولوجي جديد ، يتسم بتحويلات هامة و عميقة ، تستدعي إعادة النظر في مفهوم النظرية الأدبية ، كما تستدعي إعادة صياغة السؤال الملغز للنقد الأدبي .

الكلمات المفتاحية: النظرية الأدبية - النقد الأدبي - الابستمولوجيا.

Résumé : Le but de cette étude méta- critique est de soulever la situation problématique que connaît le discours théorique arabe contemporain, et ce dans un contexte épistémologique marqué par des transformations importantes et profondes, qui appellent à une reconception de la théorie littéraire et à une reformulation de la question énigmatique de la critique littéraire.

Mots clefs : théorie littéraire, critique littéraire, épistémologie

يشرّع المبحث النقدي لإرهابية وجوده كتجربة معرفية غير مستنفدة مفتوحة على الاحتمال والإمكان، حيث يمارس حضوره الإشكالي في ساحة النقاش الاستمولوجي المعاصر بوصفه مشروعاً بحثياً متعدد الأوراش، هذا الأمر يجعلنا نقف أمام افتراض مبدئي مؤداه أن أي محاولة لإعادة مفهومة (Reconceptualisation) المعرفة النقدية تستلزم - لإحالة - الإقرار بالطبيعة العلائقية / الاختلافية لمنجزها.

والحال، أن شبكة التعالقات والتعاقدات التي بات يعقدها المبحث النقدي مع غيره من الحقول المعرفية، تجعل منه سيورة معرفية متحوّلة وفعالية فكرية معقدة، لا تعرف الانكفاء والاكتفاء. لم يعد النقد - في مرحلته البعدية - يعترف بأحادية المعنى (Univocité du sens) بعد أن تخلى طوعاً عن حقيقته المطلقة «التي حلّت محلها نسبية تخضع موضوعها إلى معايير ومعارف ومصالح لحظة تاريخية قابلة للنقد ونقد النقد...»¹.

هكذا تجاوز الفكر النقدي حدوده وجموده المؤسسي (Statisme institutionnel)

كما تحرّج من قوالبه الفكرية المستنسخة، واستعاض عن مسبقاته ومسلماته ومقرراته بمبدأ التعددية الذي يكفله الدرس الاستمولوجي المعاصر، و الذي بمقتضاه لم يعد النقد نشاطاً متجانساً وإنما مجموعة من النشاطات المتداخلة، و المتفاعلة التي يتم كل منها داخل إطار مؤسسي، و وظيفي مختلف، وعبر قنوات توصيل متباينة، و من خلال مشاركين يضطلعون بأدوار و مهمات متغايرة في العملية الثقافية الشائقة والمعقدة»⁽²⁾.

و يعد "التنظير" أحد أهم النشاطات التي رافقت الاستقصاء النقدي واقتزنت به و لا تزال منذ « محاوره أفلاطون الأولى "يون" وهي أول نص عربي مكتوب، متبقٍ يقصر نفسه عموداً، وبشكل رسمي على الأمور العامة للنقد الأدبي»⁽³⁾، إلى آخر ما يكتب اليوم؛ إنه - أي التنظير - أحد أهم أبعاد العملية النقدية بما ينطوي عليه من وظيفة إدراكية تشكل منطلق هذه العملية برمتها.

لاغرو، إن "التنظير" هو ما يحقق للدرس النقدي مشروعته المعرفية، و هذا ما يفسر تحول الاهتمام إليه مؤخراً. والأكيد أن المتتبع للشأن النقدي خاصة في السنوات الأخيرة يلحظ تسارع إيقاع التقدم المطرد لهذا الحقل المعرفي، إلى حد جعل الباحث "عبد السلام المسدي" يسم هذه اللحظة التاريخية المخصوصة بـ "لحظة انفجار النظرية النقدية"⁽⁴⁾، و لعل الباحث يومئ إلى قضية استعصاء الفاعلية النظرية للنقد المعاصر على الحصر و الإحاطة، بالنظر إلى اشتغالها في مساحة معرفية لا تتوقف عن الاتساع و الامتداد، يقول المسدي مؤكداً الفكرة ذاتها «و أول البدائه في هذا المام أن انفجار النظرية النقدية قد أتى إلى الجوهر الذي يتحدث النقاد فجعله جواهر، وجاء إلى موضوع النقد فجعله مواضيع من الحديث عن الآداب، إلى الحديث عن النص، ثم عن الكتابة، فعن التلقي، إنما أنت مع كل لفظ تبرم عقداً فكرياً جديداً له حيثياته و له أشرطه»⁽⁵⁾.

ها هنا ، تصبح المساءلة الذاتية "أو لنقل" ممارسة الوعي النقدي قانونا داخليا مضمرا في تطور الفعلية النظرية، وهو ما يؤكد الباحث "جابر عصفور" حين يعتبر أن "السمة الحاسمة التي تكشف عن أهم ما يتميز به النقد الأدبي المعاصر، في ممارسته العالمية، و هي أنه نقد لا يكف عن مساءلة ذاته في فعل مساءلة موضوعه ، ولا تتناقص حدة وعي بحضوره النوعي بل تتزايد يوما بعد يوم، خصوصا من حيث ما يقوم به هذا النقد من مراجعة مستمرة لمفاهيمه وتصوراتهِ و محاسبة متصلة لإجراءاتهِ و أدواتهِ تعميقا لجرى ممارسته أو تطويرا لتقنياته أو بحثا عن أفق يعد بالمزيد من التقدم»⁽⁶⁾.

ولن نبالغ في هذا الإطار، إذ قلنا إن سؤال "النظرية النقدية" من أهم المناطق المعرفية الواعدة التي توجه إليها الاهتمام الفكري النقدي العلمي مؤخرًا، باعتبارها تمثل الواجهة النسقية الأكثر دلالة على العلائقية المعقدة للوعي النقدي بشرطه التاريخي.

و الواقع أن ممارسة المساءلة المعرفية في شكل وعي تاريخي، أصبحت استراتيجية فكرية لا مناص للنظرية الأدبية عنها، هذه الممارسة التي أفضت -حسب الباحث جابر عصفور دائما- إلى صحوّة النظرية ، إنها «صحوّة يمكن أن ترى فيها علامة على رحابة أفق ما بعد البنيوية، سواء في الحرص على تفكيك سجن النسق أو وصل النسق المفتوح بالواقع الحي وإعادةه إلى صراع التاريخ المتوثب»⁽⁷⁾، كما يمكن أن نرى فيها دعوة ملحة إلى مقاومة الانغلاق النظري، تنطوي على إرادة متأصلة لثلة من المفكرين المابعيين من آفاق مختلفة "لرصد" التاريخي" عبر الخطاب النظري، فالتاريخ -حسب هومي.ك.بابا- يجري داخل صفحات النظرية، وداخل المنظومات والبنى التي تبنيتها كي تصور مرور التاريخي⁽⁸⁾.

لم يعد ممكنا أن تحتفظ "النظرية" لنفسها بحق الخطاب المطلق، الشامل، المتعالي على حدود الزمان والمكان مثلما رشحه أصل المفردة و سلوكها منذ تأسيسها في الموروث الإغريقي واللاتيني إلى اليوم، فالمفردة تعود في أصولها إلى "النظر" والرؤية والبصر، والحقيقة المعرفة والمجردة من الغايات النفعية، بل أن مفردة الحقيقة thea تتأصل في المفردة مثلما يتأصل فيها أيضا مفهوم الآلهة thea⁽⁹⁾.

لكن هذه الأصول الإلهية التي يحيل إليها المفهوم المتأصل في الذاكرة الاصطلاحية، لا يمكن أن تنفي طابعها البشري، خاصة حينما يتعلق الأمر "بنظرية الأدب" لأن الأدب -كما يستنتج تيري إيجلتون« مرتبط ذلك الارتباط الحيوي بأوضاع البشر الحياتية، فهو ملموس وليس مجردا بيدي الحياة بكل تنوعها الخصب، و ينبذ البحث المفاهيمي العميق لكي يشعر بما هو حي ويتذوقه»⁽¹⁰⁾.

وهذا لا يعني تجريد "النظرية" من دلالتها الإستيمولوجية "بوصفها الخطاطة التصورية لإدراك الموضوعات والظواهر الفكرية والمادية معا⁽¹¹⁾. وإنما تطوير مفهومها، لتتحول " من مجموعة من التصورات الذهنية المتخيلة والمغايرة للتجربة، إلى

نظام يختزل في العالم الحسي والمادي»⁽¹²⁾ وهذا لا يتأتى إلا إذا أخذت النظرية الأدبية على محمل الجد ظروف إنتاجها التاريخية، بمعنى أن يكون لها وعي ذاتي بتاريخها (تاريخ عصرها)، يقول تيري إيجلتون: «وحقيقة الأمر، أن النظرية الأدبية ليست موضوع بحث فكري بحد ذاتها بقدر ما هي منظور محدد نرى فيه إلى تاريخ عصرنا»⁽¹³⁾.

من منظور كهذا، يقف التنظير للأدب والنقد على عتبة قريبة إن لم تكن هي نفسها عتبة الممارسة الإجرائية بعد أن انزاحت الحدود بينهما، وليس من المبالغة في شيء القول إن أحدهم مكاسب النظرية الأدبية المعاصرة هي «كشفها انغماس التنظير بالتطبيق، و انغماسها في نفسها بما تقاربه من مادة، و كشفها أن ما تخلص إليه من نتائج إنما هو غالبا نتيجة لما تفترضه مسبقا»⁽¹⁴⁾.

ولعل هذا الوعي النظري الأجدد، هو الذي مكن "النظرية الأدبية المعاصرة" من استيعاب أكثر الخطابات والموضوعات والرؤى اختلافا، يقول الباحث فحري صالح: «لقد أصبحت النظرية الأدبية علم العلوم، كما كانت الفلسفة في غابر الزمان، وأصبح الناقد الأدبي العتيق الذي غاب تحت ركام الخطابات المتباينة، مطالبا بتوجيه اهتماماته لا إلى النصوص الأدبية فقط، بل إلى جميع مظاهر الوجود»⁽¹⁵⁾، وهذا بعد أن تبين تهاافت الحدود ما بين ما هو أدبي، وما هو غير أدبي، وتوضّح للجميع حتمية التداخل بين مدارات العلمي و الايديولوجي و الأسطوري والديني....

وبذا وذلك، استطاعت النظرية الأدبية المعاصرة أن تجمع تحت سقفها شتات المعارف المختلفة: الأثروبولوجيا، تاريخ الفن، الدراسات ما بعد الاستعمارية، التاريخانية، دراسات الجنس(الجندر)، اللسانيات، الفلسفة، الدراسات السينمائية مدشنة - بهذا التراكم النظري- أفقا جديدا لواقع الاختلاف، حتى أن هناك من الباحثين من يذهب إلى حد اعتبار «النظرية أكثر الطرق إلى اللانظرية أو فوضى التنظير في ارتباطها بعصر شك وتدمير ثوابت ، ترفض التثبيت والاحتفاء بالتدمير الذاتي»¹⁶. وكما هو جلي ، فنحن إزاء ثورة تصورية جديدة للفعل النظري، ولعل أحد أهم معالمها -حسب اعتقادنا- هي: خاصية التجاوز الذاتي (Propriété d'auto- transcendance) ، وهي الخاصية التي مكنت الفكر النظري المعاصر من استعادة كل ما استبعده المركزية العقلانية و استدارت عنه نظرية المعرفة في صورتها التقليدية كالهامشي ، المنفلت، المدنس.... لقد تمرت النظرية الأدبية عن ذاتها «بجثا عن هوية ولغة وفلسفة تتلاءم مع الذوات الفاعلة والمنفصلة بالمحيط ، خارج أحادية الفكر المتسلط ، الذي يتبع نمطية تلقينية باسم سلطة للثبات و الاستقرار والتراتبية والانسجام والوحدة»¹⁷.

وضمن هذا المساق، تستوقفنا بضع أسئلة محورية عالقة من قبيل: ما موقف/ موقع الخطاب التنظيري العربي من هذه المراجعات التأسيسية لمؤدى النظرية الأدبية؟ هل حاول استثمارها بتحويلها إلى إمكانات جديدة و إبدالات واعدة أم اكتفى بصفحة الاستيراد الممؤه؟ و إلى أي حد يمكن الحديث عن وجود ثقافة "النظرية" في النطاق العربي؟

إن المتأمل في تفاصيل خرائطية النقد العربي المعاصر، قد يلحظ -دون كبير عناء- توجهها عاما إلى فعل التنظير، وهذا ما يظهر بشكل جلي في المقررات الدراسية / الجامعية التي تغلب عليها المادة النظرية و يكاد يغيب فيها المقترح الإجرائي، كما يتضح هذا التوجه أيضا في كثرة كتب التنظير العربية، التي يدبجها الباحثون ليستعرضوا فيها تلك الأسس المعرفية والمرتكزات المنهجية التي يصدر عنها، و عادة ما يكون ذلك مقرونا برفع شعار التأسيس النظري، كخطوة ضرورية لنيل حقوق الامتياز المعرفي في مؤسسة النقد العربي، مثلما تكشف عنه الظاهرة الغدامية- التي نأخذها هاهنا كعينة تمثيلية - فلنقرأ ما جاء في مقدمة كتابه النقد الثقافي «و بما أن النقد الأدبي غير مؤهل لكشف هذا الخلل الثقافي في فقد كانت دعوتي بإعلان موت النقد الأدبي، وإحلال النقد الثقافي مكانه، و كان ذلك في تونس في ندوة عن الشعر، عقدت في 1997/9/22، و كررت ذلك في مقالة في جريدة الحياة (أكتوبر 1998).»⁽¹⁸⁾

ولا يشكل الغدامي "حالة متفردة في المشهد النقدي العربي المعاصر، الذي يزدهم بمثل هذه الدعاوى التأسيسية، مثلما يكشف عنه الناقد "نبيل سليمان" من خلال قراءته النقدية التي شملت جملة من الأقلام النقدية المعروفة على غرار أدونيس، خالدة سعيد، محي الدين صبحي، كمال أبوديب....) هذه الأقلام النقدية و غيرها تشكل «تجسيدا نموذجيا لذلك الورم في الذات الذي رافق تعاظم النشاط النقدي الأدبي العربي في العقد الأخير، و خاصة محاولات المنهجة والتنظير، فثمة عدد غير قليل من النقاد لا يفتأ يعلن - كل من موقعه، أنه هو الذي شق السبيل لا سواه، و أن المنهج أو النظرية- و أحيانا المشروع الثقافي و التاريخي كله- يبدأ منه».»⁽¹⁹⁾

الأمر الذي يفرض القول إننا إزاء أحد أهم علائم أزمة النقد العربي المعاصر، و هو ما يسميه الباحث "محمد الدغمومي" "الوهم التنظيري" الذي يمكن تشخيصه من خلال «كثرة الخطابات التي تتوهم نفسها، تنظيرا، و تضخم في دور النقد أمام هامشية الأدب نفسه (بصفته وضعه) حتى ليكاد الباحث يقول: ما أكثر النقد، وما أقل الأدب، وهو وضع لا يمكن أن يكون مقبولا لأنه يعني تضخم موقع على موقع وقيمة على حساب قيمة، في واقع مختل يجب أن تكون فيه المبادرة للأدب و يكون النقد في خدمة موقع الادب قبل أن يخدم نفسه، و لأن التنظير بعد ذلك يأتي لخدمة الأدب و النقد لحسابهما لا لحساب موقع وهمي».»⁽²⁰⁾

وإلى نزعة "الاستعلاء النظري" هذه، يشير الباحث "محمد لطفي اليوسفي" في حديثه عن الخطابات النقدية المتعاطلة «فهي تمضي بالكتابة حتى يتمها و خراجها، و تعمق غربتها و غرابة الواقعفني حباثلها. بل إنها خطابات مافتتت تعمق الفجوة بين الواقع و النص، و بين الخطاب الجمالي و قضايا الإنسان العربي في هذه اللحظة التاريخية التي تشهد انحسار دور المثقف وانكفاء وعيه بقدراته و مهماته التاريخية على نحو فاجع».»⁽²¹⁾

وبذا، تتجه الخطابات النظرية المتعلمة "إلى تكريس عزلتها وانكفائها على ذاتها، متحولة إلى ضرب من اليوتوبيا المتعالية عن الزمان و المكان والإنسان، وهو ما لا يتسق مع المتصور الجديد للنظرية باعتبارها: «كتلة فكرية و ثقافية وإنسانية، نشأت في ظل ظروف تاريخية معينة.»⁽²²⁾

و مؤدى هذا، أن النظرية لا تبارح تاريخها، بل تحمله معها؛ والإشكال النظري - هو في المحصلة - ما يرتسم في صورة تاريخ توتر وصراع بين الثابت والمتحول، الواقع والمثال، وهي بهذا تمارس حضورها النوعي كوعي جدلي "تجاوزي" فليست هناك نظرية أدبية إلا وتحمل في طياتها إشارات إلى نظرية أو نظريات أخرى. وحتى النظريات التي يبدو أنها اندثرت وأصبحت في ذمة التاريخ، نجدتها و قد تحولت إلى سماء في التربة الأدبية و النقدية، أو إلى عصاره امتصتها النظريات الجديدة اليافعة لتواصل الإخصاب و الإثمار».⁽²³⁾

و في غياب هذا الوعي الاستيمولوجي بالطابع النسبي التاريخي للنظريات الأدبية تتحول هذه الأخيرة إلى دوغما لا تعترف بالتغيير، وحينذاك «تصبح فخا إيديولوجيا تتصبد وتسمّر مستخدميهما و الشيء الذي يدور استخدامها عنه في آن واحد معا».⁽²⁴⁾

وهو الفخ عينه الذي تقع فيه العديد من المتون "النظرية العربية" حتى تجنح إلى التسليم بالمقررات النظرية المستعادة من القديم أو المستعارة من الغرب والامتثال لسلطتها المعرفية دون مساءلة أو مراجعة أو استيعاب لشروط تكوينها التاريخية وأصولها المعرفية ولا القلق من خصوصية خواصها الثقافية والحضارية؛ ومصدر القلق في هذه الحالة - كما يؤكد سعد البازعي - «ليس بالضرورة الرغبة في عدم استقبال الآخر، أو العزلة الثقافية، وإنما هو ناتج عن الإحساس بأن ما يقدمه الآخر ينطوي على جانبين. الأول: إن استقبال الآخر كثيرا ما يتحول إلى نوع من الاستهلاك أو التهلك الذي يؤدي إلى ضمور القدرة على الإبداع، نتيجة للاعتماد على جاهزية المعطى الغربي.

الثاني: أن ما يمكن استقباله من الآخر يتضمن ما يوجب الرفض و ما يوجب القبول في الوقت نفسه، و أن العلاقة الثقافية لا تخلو من الاثنين معا».⁽²⁵⁾

و بطبيعة الحال، فان معرفة يقع فيها الوعي تحت سطوة موضوعه/ الأنموذج على نحو تنعدم فيه شروط المعرفة الحقة هي - لا محالة - «معرفة امثالية من غير شك، و لعل هذه الامثالية لا بد أن تدنو بما من تحوم الايديولوجيا التي لا تعرف شكلا لحضورها في العالم إلا مجرد الامتثال والإخضاع»⁽²⁶⁾. واللافت أنه كلما ازدادت امثالية الخطاب النظري العربي لأنموذجه الغربي، ازدادت هيمنته و سطوته على التشكيلات الخطائية التي لا تحتكم إلى نفس الأنموذج، في مفارقة دالة على تمزق "النسيج الداخلي للثقافة العربية الحديثة إلى درجة أصبحت فيها التناقضات ظاهرة لا تخفى، فتتجلى بصور النبذ، والإقصاء، والاستبعاد المتبادل بين الممارسات الفكرية التي تستمر هذه المرجعية أو تلك ضد الآخر، ومن

خلال أشكال التمويه، والتخفي، والإكراه، والتنكر الذي تأخذه المفاهيم و المناهج و الرؤى، و هي توظف بأساليب لا تأخذ في الاعتبار درجه الملائمة بين هذه العناصر و السياقات التي تستعمل فيها». (27)

هكذا يؤول الأمر إلى سلب " العقل النظري " قدراته على إنتاج المعرفة وتجرده من إمكاناته - و بالتالي - تسيجه بدل تحريره من مركزياته ، فالعقل النظري - والحال هذه- لا يكفي بقبول التسلط بل يستدعيه و يصنعه ، منتقلا في مسار ابستمولوجي / إيديولوجي متعرج من سلطة أنموذج إلى سلطة أنموذج آخر وهكذا دواليك.

على هذا النحو، تتحول النظرية في النطاق العربي من موضوع للوعي إلى أنموذج يحتذى و سلطة رمزية تصعب مواجهتها أو مجاوزتها فكريا ، و عوض أن تجري عملية تشكيل الوعي النظري وفق مقتضيات النصوص الأدبية و طبيعة المعرفة في سياق محيط تلك النصوص ، فإنه يتم نسخ و استنساخ ما يبدعه الآخر نظريا ، في مشهد درامي يحضر فيه التقليد، النقل، التعريف ، التوظيف، الانتقائية، السطحية، الوثوقية، الهجنة... و يغيب عنه السؤال و الاستشكال، علما أنّ ميزة أي معرفة نظرية تكمن في مدى قدرتها على إثارة / تثوير الأسئلة و اقتراح البدائل ، يقول كريغ كاهون في هذا الصدد: « يكمن أحد أهم أدوار النظرية في السماح لنا بطرح أنواع جديدة و مختلفة من الأسئلة» (28). هذه الأسئلة الجديدة والمختلفة، هي التي مكنت " النظرية الأدبية المعاصرة " من تقديم طرائق جديدة في النظر إلى الأدب ، و هي التي مكنتها - بالتالي- من إضفاء حيوية جديدة على علاقتنا بالنصوص الأدبية. (29)

أما الحاصل في رهن نقدنا العربي، فهو استقالة السؤال النظري عن أهم أدواره و ابتعاده عن قلق الممارسة التي تقع - من المفترض - في صلب نشاطه. و عن هذا الميثاق المعرفي الذي يربط الممارسة بالتنظير ، تقول يمنى العيد: « إنّ الممارسة تحتاج ، حين تنوحي إنتاج معرفة لموضوعها ، إلى مرتكزات نظرية تنطلق منها ، أو إلى مفاهيم تستخدمها. تندرج الممارسة في حقل نشاطها فتكون في سلسلة معارفها و إنتاجها...»³⁰. والواقع، أن هذه الهوة العميقة التي تفصل النظر النقدي العربي عن موضوعه و تبعده عن شرطه التاريخي لها بالغ الأثر في ضيق الأفق البحثي للمنظرين العرب ومحدودية خطاباتهم النقدية المسيجة بأسيجة من الانتقائية والترابعية والتغيب...

على هذا النحو ، يفقد النظر النقدي العربي معناه وفحواه حين يفصل بين الملاحظ والملاحظ ، متناسيا أنه « لا توجد إلا النصوص التي تحمل قارئها على منحها قيمها ، بدل تلك المشحونة سلفا بقيم لا تتطلب أكثر من فك سننها ومغلقاتها ، إذ لا توجد حصانة مطلقة ولا قيمة خالصة ، لارتباطهما بسلطة تفسير ضعيفة ، بل تخضع الموضوعات إلى معايير نسبية و مصالح قابلة للنقد ونقد النقد...»³¹. لا ريب ، التنظير لا ينطلق من فراغ ، ولا بد من الإقرار بضرورة المزاوجة بين فعل التنظير وممارسة التطبيق . إنّ الممارسة تندغم في التنظير و تندمج معه و تساهم في بلورته، لهذا ليس من المبالغة اعتبار النظرية نتاجا معرفيا للممارسة و هو ما تؤكد الباحثة " يمنى العيد " بقولها : « تُنتج الممارسة النظري أو تعيد إنتاجه، مستمرة بسيرورته التاريخية» (32).

بهذا الطرح الجديد، يسوّى الفارق القيمي بين النظرية و الممارسة ، و تحمى الحدود المصطنعة بينهما، فكليهما يحتاج إلى الآخر و يستدعيه، و يبقى الهدف المشترك واحدا و هو فهم الأدب، و « لكي يكون كذلك ، لا بدّ من أن يقوم الفهم على أساس منهجي ملائم لا يعيد انتاج موضوعه كما هو، وإتّما يعيد اكتشاف موضوعه بصورة مغايرة لما هو سائد في معرفته، و لا يقف عند المعلوم والظاهر، و إتّما يستقصي المسكوت عنه و الغائب، بما يصير موضوع تفكير راهن. مثل هذا الفهم، هو الذي يمكن أن يحقق المطلوب المعبر عن جهد التنظير»⁽³³⁾.

و على الرغم من وجود مثل هذا الجهد التنظيري " عند بعض الباحثين العرب المعاصرين، الذين لم يترددوا في ارتياد مناطق بحثية غير مأهولة من أجل إعادة اكتشاف الأدب العربي من جديد ، مستثمرين التطور الدلالي الحاصل في مفهوم النظرية الأدبية المعاصرة، إلا أنّ هذا الجهد التنظيري المقترصر على بعض الأفراد ، لا يستطيع أن ينشأ خطابا تنظيريا متكاملًا على كافة الصُّعد، فالتأسيس لنظرية عربية حديثة هو مشروع حضاري تتآزر فيه كل الطاقات ، و ليس مطلبًا فرديًا.

لا مراء إن « القصد الهادف إلى صنع " نظرية" أو "منهج" أو دعم الوعي النقدي أمر لا يقدر عليه ناقد واحد ، أو عمل فردي ، خصوصا إذا تعلق الأمر بصنع نظرية عربية حديثة ، لأنها مشروع يتطلب مبادرات و مساهمات كثيرة ، مشروع قد يكون التفكير في شروط إنجازها أول خطوة قبل الانخراط فيه»⁽³⁴⁾.

ها هنا، يستوقفنا التاريخ الثقافي العربي و يحثنا على إعادة قراءته، قراءة واعية ، للكشف عن أحد أهم خصوصيات الفكر العربي الإسلامي (القلم) الذي مكنته من ابتناء صرحه النظري و ترسيخ ثقافة النظرية على مدى قرون.

و الحاصل أنّ هذا الفكر استطاع " أن يجعل النظرية جزءا من الواقع الثقافي وجزءا من المشكلة المعرفية، على نحو ما قام به العلماء والمفكرون الأوائل في قضايا النظرية التي وضلوعها في مسائل أصول الدين وأصول الفقه و العقائد، وعلوم الأدب، وعلوم اللغة والفلسفة والمنطق، وعلوم الطبيعية، وبقية العلوم الأخرى»⁽³⁵⁾.

ويبدو أن هذه المهمة النظرية، لم يستطع الفكر النقدي العربي المعاصر إنجازها، مصرا على إلغاء الواقع الإشكالي و إبقاء الذات العربية خارج تاريخها الفعلي .

و هكذا، عوض أن تتمّ معالجة متغيرات ومستجدات الواقع الثقافي الأدبي بما يفرزه الواقع ذاته من ضرورة، يتمّ ترك المجال للنظرة اللا تاريخية ، لتحديد مسارات معرفة " الراهن الأدبي والثقافي والفكري....والنتيجة :رسوخ ثقافة "التابعة الفكرية" وغياب ثقافة "النظرية".

قائمة المصادر والمراجع

- ابراهيم (عبد الله)، الثقافة العربية و المرجعيات المستعارة، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2010.
- البازعي (سعد)، استقبال الآخر (الغرب في النقد العربي الحديث)، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ط1، 2004.
- الدغمومي (محمد)، نقد النقد و تنظير النقد العربي المعاصر، منشورات كلية الآداب الرباط، المغرب، ط1، 1999.
- الرويلي (ميحان)، البازعي (سعد)، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب/لبنان، ط4، 2005.
- العبد (مخى)، في معرفة النص، دار الآفاق الجديدة بيروت، ط3، 1985.
- الغدامي (عبد الله)، النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ط1، 2000.
- المسدي (عيد السلام)، الأدب و خطاب النقد، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004.
- اليوسفي (محمد لطفي)، فنتة المتخيل خطاب الفنتة و مكائد الاستشراق، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، لبنان، ط1، 2002.
- ايجلتون (تيري)، نظرية الأدب (مدخل)، دار المدى للطباعة و النشر، سوريا، ط1، 2006.
- بابا (هومي.ك)، موقع الثقافة، تر، ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ط1، 2006.
- حافظ (صبري) حافظ، أفق الخطاب النقدي (دراسات نظرية و قراءات تطبيقية)، دار شرقيات للنشر و التوزيع، ط1، 1996.
- راغب (نبيل) راغب، موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوجمان، مصر، 2003.
- سعيد (ادورد)، العالم الناقد و النص، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، د.ط، 2000.
- سلدن (رامان)، النظرية الأدبية المعاصرة، تر: جابر عصفور، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع، مصر، د.ط.
- سليمان (نبيل)، مساهمة في نقد النقد الأدبي، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط1، 1988.
- عصفور (جابر)، النظريات المعاصرة، دار المدى للطباعة و النشر، سوريا، ط1، 1998.
- علوش (سعيد)، تنظير النظرية الأدبية (من الوضعية إلى الرقمية)، مطبعة البيضاوي، الرباط، ط1، 2013.
- عودة (ناظم) عودة، تكوين النظرية في الفكر الإسلامي و الفكر العربي المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1، 2009.
- كاهون (كريغ)، النظرية الاجتماعية النقدية، ثقافة الاختلاف و تاريخه و تحديه، تر: مروان سعد الدين، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2013.
- مبروك (علي)، لعبة الحدائث بين الجنرال و الباشا، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، ط1، 2006.
- مع من الباحثين: آفاق النظرية الأدبية المعاصرة بنوية أم بنويوات، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، لبنان، ط1، 2007.
- ويمزات (ويليام.ك) و برونكس (كلينت)، النقد العربي، تر إحسام الخطيب و محي الدين صبحي، مطبعة الجامعة، دمشق، د.ط، 1973.

إحالات البحث

- 1- سعيد علوش، تنظير النظرية الأدبية (من الوضعية إلى الرقمية)، مطبعة البضاوي، الرباط، ط1، 2013، ص30.
- 2- صبري حافظ، أفق الخطاب النقدي (دراسات نظرية و قراءات تطبيقية)، دار شرقيات للنشر و التوزيع، ط1، 1996، ص8.
- 3- ويليام. ك. ويمزات وكلينت بروكس، النقد العربي، تر إحسام الخطيب و محي الدين صبحي، مطبعة الجامعة، دمشق، د.ط، 1973، ص7.
- * ليس المقصود هنا النظرية النقدية المرتبطة بمدرسة فرانكفورت حصراً وإنما النظرية النقدية بمفهومها الواسع الذي يرتبط بالنقد الأدبي في مرحلته ال"مابعدية" التي تشمل إلى جانب مدرسة فرانكفورت العديد من المدارس الفكرية كالتفكيكية ومابعد الاستعمارية ومابعد الماركسية....
- 4- ينظر عيد السلام المسدي، الأدب و خطاب النقد، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004، ص9.
- 5- عبد السلام المسدي، الأدب و خطاب النقد، ص10.
- 6- جابر عصفور، النظريات المعاصرة، دار المدى للطباعة و النشر، سوريا، ط1، 1998، ص9.
- 7- ينظر المرجع نفسه، ص315.
- 8- هومي.ك.بابا، موقع الثقافة، تر، ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ط1، 2006.
- 9- ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب/لبنان، ط4، 2005، ص275.
- 10- تيري إيجلتون، نظرية الأدب (مدخل)، دار المدى للطباعة و النشر، سوريا، ط1، 2006، ص312.
- 11- ناظم عودة، تكوين النظرية في الفكر الإسلامي و الفكر العربي المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1، 2009، ص47.
- 12- م ن، ص ن.
- 13- تيري إيجلتون، المرجع نفسه، ص310.
- 14- معج من الباحثين: آفاق النظرية الأدبية المعاصرة بنوية أم بنويوات، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، لبنان، ط1، 2007، ص13.
- 15- ينظر ناظم عودة، تكوين النظرية، ص18.
- 16- سعيد علوش، تنظير النظرية الأدبية، ص62.
- 17- المرجع نفسه، ص247.
- 18- عبد الله الغدامي، النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ط1، 2000، ص8.
- 19- نبيل سليمان، مساهمة في نقد النقد الأدبي، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ط1، 1988، ص53.
- 20- محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، منشورات كلية الآداب، الرباط، المغرب، ط1، 1999، ص83.
- 21- محمد لطفي اليوسفي، فنتة المتخيل خطاب الفتنة و مكائد الاستشراق، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، لبنان، ط1، 2002، ص371.
- 22- ناظم عودة، تكوين النظرية، ص11.
- 23- نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، مصر، 2003، ص ز.
- 24- ادوارد سعيد، العالم الناقد و النص، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، د.ط، 2000، ص295.
- 25- سعد البازعي، استقبال الآخر (الغرب في النقد العربي الحديث)، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ط1، 2004، ص15.
- 26- علي مبروك، لعبة الحدائث بين الجنزال و الباشا، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص29.
- 27- عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية و المرجعيات المستعارة، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2010، ص9.
- 28- كريغ كاهون، النظرية الاجتماعية النقدية، ثقافة الاختلاف و تاريخه و تحديه، تر: مروان سعد الدين، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2013، ص51.

- 29 - ينظر ، رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، تر : جابر عصفور ، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع، مصر، د.ط ، ص 19.
- 30 - بمى العيد، في معرفة النص، دار الآفاق الجديدة بيروت، ط3، 1985، ص 14 و 15.
- 31_ سعيد علوش ، تنظير النظرية الأدبية ، ص 11.
- 32 - بمى العيد، في معرفة النص، ص 15.
- 33 - محمد الدغمومي، نقد النقد، ص 86.
- 34 - المرجع نفسه، ص 84.
- 35- ناظم عودة، تكوين النظرية، ص 48.